سـورة الفاتحة

السورة طائفة من القرءان مؤلفة من ثلاث آيات فأكثر لها اسم يعرف بطريق الرواية ، وقد روى لهذه السورة عدة أسماء اشتهر منها : أم الكتاب . أم القرءان . (لاشتمالها على مقاصد القرءان من الثناء على الله والتعبد بأمره ونهيه ، و بيان وعده ووعيده) ، والسبع المثانى (لأنها تثنى فى الصلاة) ، والأساس (لأنها أصل القرءان وأول سورة فيه) ، والفاتحة (لأنها أول القرءان فى هذا الترتيب أوأول سورة نزلت) فقد أخرج البيهقى فى كتابه الدلائل عن أبى ميسرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء فقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً فقالت معاذ الله ، ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم ، وتصدق ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم أخبر ورقة بذلك ، وإن ورقة أشار عليه بأن يثبت ويسمع النداء ، وإنه صلى الله عليه وسلم لما خلا ناداه الملك يا محمد قل : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ـ حتى بلغ ولا الضالين .

وقد رجح هذا بأنها مشتملة على مقاصد القرءان على سبيل الإجمال ثم فصل ما أجملته بعد .

بيان هذا أن القرءان الكريم اشتمل على التوحيد ، وعلى وعد من أخذ به بحسن المثوبة ووعيد من تجافى عنه وتركه بسىء العقوبة، وعلى العبادة التى تحيى التوحيد فى القلوب وتثبته فى النفوس ، وعلى بيان سبيل السعادة الموصل إلى نعيم الدنيا والآخرة ، وعلى القصص الحاوى أخبار المهتدين الذين وقفوا عند الحدود التى سنها الله لعباده وفيها سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم ، والضالين الذين تعدوا الحدود ونبذوا أحكام الشرائع وراءهم ظهريا .

وقد حوت الفاتحة هذه المعانى جملة ، فالتوحيد يرشد إليه قوله (الحمد لله رب

العالمين) لأنه يدل على أن كل ثناء وحمد يصدر عن نعمة فهو له ، ولن يكون هذا إلا إذا كان عز اسمه مصدر النعم التى تستوجب الحمد ، وأهمها نعمة الإيجاد والتربية وذلك صريح قوله (رب العالمين) وقد استكمله بقوله (إياك نعبد و إياك نستعين) وبذلك اجتث جذور الشرك التى كانت فاشية فى جميع الأمم ، وهى اتخاذ أولياء من دون الله يستعان بهم على قضاء الحاجات و يتقرب بهم إلى الله زلفى .

والوعد والوعيد يتضمنهما قوله (مالك يوم الدين) إذ الدين هو الجزاء وهو إما ثواب للمحسن و إما عقاب للمسىء ، والعبادة تؤخذ من قوله : (إياك نعبد و إياك نستعين) .

وطريق السعادة يدل عليه قوله (اهدنا الصراط المستقيم) إذ معناه أنه لا تتم السعادة إلا بالسير على ذلك الصراط القويم ، فمن خالفه وانحرف عنه كان فى شقاء مقيم .

والقصص والأخبار يهدى إليها قوله (صراط الذين أنعمت عليهم) فهو يرشد إلى أن هناك أمما قد مضت وشرع الله شرائع لهديها فاتبعتها وسارت على نهجها فعلينا أن نحذو حذوها ونسير على سننها ، وقوله (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) يدل على أن غير المنعم عليهم صنفان : صنف خرج عن الحق بعد علمه به وأعرض عنه بعد أن استبان له ورضى بما ورثه عن الآباء والأجداد وهؤلاء هم المغضوب عليهم ، وصنف لم يعرف الحق أبدا أو عرفه على وجه مضطرب مهوش ، فهو فى عماية تلبس الحق بالباطل وتبعد عن الجادة الموصلة إلى الصراط السوى ، وهؤلاء هم الضالون .

وهذه السورة إحدى السور المكية التى نزلت قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وعدة آيها سبع .

وقد نزل القرءان الكريم منجما أى مفرقا فى ثلاث وعشرين سنة على حسب الحوادث التى دعت إلى نزوله ، وقد نزل بعضه بمكة قبل الهجرة و بعضه بالمدينة بعدها ، ولكل من المكى والمدنى ميزات يعرف بها .

فمن ميزات المكى أنه نزل لبيان أسس الدين من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وفعل الخيرات وترك المنكرات ، مع إيجاز فى التعبير واختصار فى الأسلوب ، ويتضح ذلك جليا فى قصار المفصل كالحاقة والواقعة والمرسلات . ومن ميزات المدنى أنه جاء بأحكام العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية فى السلم والحرب ، وأصول التشريع للحكومات الإسلامية - إلى إسهاب فى الأسلوب وبسطة فى القول ولا سيما عند محاجة أهل الكتاب والنعى عليهم بتحريف ما أنزل إليهم ودعوتهم إلى التوحيد الخالص وبيان أن الإسلام الذى جاء به القرءان هو دين الأنبياء صلوات الله عليهم جميعا .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ (١)

تمهـــيد

يرى بعض الصحابة ـ كعلى وابن عباس وابن عمر وأبى هريرة ، و بعض التابعين كسعيد بن جبير وعطاء والزهرى وابن المبارك و بعض فقهاء مكة وقرائها ومنهم ابن كثير ، و بعض قراء الكوفة وفقهائها ومنهم عاصم والكسائى والشافعي وأحمد ـ أن البسملة آية من كل سورة من سور القرءان الكريم .

ومن أدلتهم على ذلك :

(١) إجماع الصحابة ومن بعدهم على إثباتها فى المصحف أول كل سورة عدا سورة براءة ، مع الأمر بتجريد القرءان من كل ما ليس منه ، ومن ثم لم يكتبوا (آمين) فى آخر الفاتحة :

(٢) ما ورد فى ذلك من الأحاديث ، فقد أخرج مسلم فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنزلت على آنفا سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم » ، وروى أبو داود عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف انقضاء السورة حتى ينزل عليه (بسم الله الرحمن الرحيم) وروى الدارقطنى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا قرأتم الحمد لله فاقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها أم القرءان والسبع المثانى و بسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها .

(٣) أجمع المسلمون على أن ما بين الدفتين كلام الله تعالى ، والبسملة بينهما فوجب جعلها منه .

و يرى مالك وغيره من علماء المدينة ، والأوزاعى وجماعة من علماء الشام وأبو عمرو يعقوب من قراء البصرة وهو الصحيح من مذهب أبى حنيفة ـ أنها آية مفردة من القرءان أنزلت لبيان رءوس السور والفصل بينها .

ويرى عبد الله بن مسعود أنها ليست من القرءان أصلا وهو رأى بعض الحنفية .

ومن أدلتهم على ذلك حديث أنس قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وعثمان وكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم فى أول قراءة ولا آخرها .

الإيضاح

(بسم) الاسم هو اللفظ الذى يدل على ذات كمحمد وإنسان ، أو معنى كعلم وأدب .

وقد أمرنا الله بذكره وتسبيحه فى آيات فقال (فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم) وقال (فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) وقال : (فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) .

وأمرنا بذكر اسمه وتسبيحه فى آيات أخرى فقال (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا) وقال (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا) وقال (وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه) .

ومن ذلك يعلم أن ذكر المسمى مطلوب بتذكر القلب إياه ونطق اللسان به لأنه دليل على ذكر القلب بتذكر عظمته وجلاله ونعمه المتظاهرة على عباده ، وذكره باللسان هو ذكر أسمائه الحسنى وإسناد الحمد والشكر إليه وطلب المعونة منه على إيجاد الأفعال وإحداثها .

وكذلك ذكر الاسم مشروع ومطلوب ، فيعظم الاسم مقرونا بالحمد والشكر وطلب المعونة فى كون الفعل معتدا به شرعا ، فإنه مالم يصدر باسمه تعالى يكون بمنزلة المعدوم .

(الله) علم مختص بالمعبود بالحق لم يطلق على غيره ، وكان العربى فى الجاهلية إذا سئل من خلق السموات والأرض ؟ يقول الله ، وإذا سئل هل خلقت اللات والعزّى شيئا من ذلك ؟ يجيب (لا) .

والإله اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل ، ثم غلب على المعبود بالحق .

(الرحمن الرحيم) كلاهما مشتق من الرحمة وهى معنى يقوم بالقلب يبعث صاحبه على الإحسان إلى سواه ، و يراد منها فى جانب المولى عزّ اسمه أثرها وهو الإحسان .

إلا أن لفظ (الرحمن) يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة وهى إسباغ النعم والإحسان ، ولفظ (الرحيم) يدل على منشأ هذه الرحمة وأنها من الصفات الثابتة اللازمة له ، فإذا وصف الله جل ثناؤه بالرحمن استفيد منه لغة أنه المفيض للنعم ، ولكن لا يفهم منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائما ، و إذا وصف بعد ذلك بالرحيم علم أن لله صفة ثابتة دائمة هى الرحمة التى يكون أثرها الإحسان الدائم ، وتلك الصفة على غير صفات المخلوقين ، و إذا يكون ذكر الرحيم بعد الرحمن كالبرهان على أنه يفيض الرحمة على عباده دائما لثبوت تلك الصفة له على طريق الدوام والاستمرار.

افتتح عزّ اسمه كتابه الكريم بالبسملة إرشادا لعباده أن يفتتحوا أعمالهم بها ، وقد ورد فى الحديث كل أمر ذى بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر (أى مقطوع الذنب ناقص) .

وقد كان العرب قبل الإسلام يبدءون أعمالهم بأسماء آلهتهم فيقولون باسم اللات أو باسم العزى ، وكذلك كان يفعل غيرهم من الأمم ، فإذا أراد امرؤ منهم أن يفعل أمرا مرضاة لملك أو أمير يقول أعمله باسم فلان ، أى أن ذلك العمل لا وجود له لولا ذلك الملك أو الأمير .

و إذاً فمعنى أبتدئ عملى باسم الله الرحمن الرحيم أننى أعمله بأمر الله ولله لا لحظ نفسى وشهواتها .

و يمكن أن يكون المراد — أن القدرة التى أنشأت بها العمل هى من الله ولولا ما أعطانى من القدرة لم أفعل شيئا فأنا أبرأ من أن يكون عملى باسمى بل هو باسمه تعالى ، لأننى أستمد القوة والعون منه ، ولولا ذلك لم أقدر على عمله ، و إذا فمعنى البسملة التى جاءت أول الكتاب الكريم ، أن جميع ماجاء فى القرءان من الأحكام

والشرائع والأخلاق والآداب والمواعظ ـ هو لله ومن الله ليس لأحد غير الله فيه شيء ، وكأنه قال اقرأ يا محمد هذه السورة بسم الله الرحمن الرحيم ، أى اقرأها على أنها من الله لا منك ، فإنه أنزلها عليك لتهديهم بها إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وكذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم يقصد من تلاوتها على أمته أنه يقرأ عليهم هذه السورة باسم الله لا باسمه أى أنها من الله لا منه ، فإنما هو مبلغ عنه تبارك وتعالى كما جاء فى قوله (وأمرت أن أكون أول المسلمين ، وأن أتلو القرءان فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين) .

« الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) » .

الإيضاح

(الحمد لله رب العالمين) الحمد لغة هو المدح على فعل حسن صدر عن فاعله باختياره ، سواء أسداه إلى الحامد أو إلى غيره .

والمدح يعم هذا وغيره فيقال مدح المال ومدح الجمال ومدح الرياض .

والثناء يستعمل فى المدح والذم على السواء ، فيقال أثنى عليه شرا كما يقال أثنى عليه خيرا .

والشكر هو الاعتراف بالفضل إزاء نعمة صدرت من المشكور ـ بالقلب أو باللسان أو باليد أو غيرها من الأعضاء كما قال شاعرهم :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجَّبا

يريد أن يدى ولسانى وقلبى لكم ، فليس فى القلب إلا نصحكم ومحبتكم ، ولا فى اللسان إلا الثناء عليكم ومدحكم ، ولا فى اليد وسائر الجوارح والأعضاء إلا مكافأتكم وخدمتكم .

وورد فى الأثر ـ الحمد رأس الشكر ، ما شكر الله عبدٌ لم يحمده . وقد جعله رأس الشكر لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على من أسداها ، يشهرها بين الناس ويجعل صاحبها القدوة المؤتسى به ، أما الشكر بالقلب فهو خفى قلَّ من يعرفه ، وكذلك الشكر بالجوارح منهم لا يستبين لكثير من الناس .

(لله) هو المعبود بحق لم يطلق على غيره تعالى .

(رب) هو السيد المربى الذى يسوس من يربيه ويدبر شئونه .

وتربية الله للناس نوعان ، تربية خَلْقِية تكون بتنمية أجسامهم حتى تبلغ الأشد ، وتنمية قواهم النفسية والعقلية ـ وتربية دينية تهذيبية تكون بما يوحيه إلى أفراد منهم ليبلغوا للناس ما به تكمل عقولهم وتصفو نفوسهم ـ وليس لغيره أن يشرع للناس عبادة ولا أن يحل شيئا ويحرم آخر إلا بإذن منه .

ويطلق الرب على الناس فيقال رب الدار ، ورب هذه الأنعام كما قال تعالى حكاية عن يوسف صلوات الله عليه فى مولاه عزيز مصر (إنه ربى أحسن مثواى) وقال عبد المطلب يوم الفيل لأبرهة قائد النجاشى : أما الأبل فأنا رب بها ، وأما البيت فإن له ربا يحميه.

(العالمين) واحدهم عالم (بفتح اللام) ويراد به جميع الموجودات ، وقد جرت عادتهم ألا يطلقوا هذا اللفظ إلا على كل جماعة متمايزة لأفرادها صفات تقربها من العقلاء إن لم تكن منهم ، فيقولون عالم الإنسان ، وعالم الحيوان وعالم النبات ، ولا يقولون عالم الحجر ، ولا عالم التراب ، ذاك أن هذه العوالم هى التى يظهر فيها معنى التربية الذى يفيده لفظ (رب) إذ يظهر فيها الحياة والتغذية والتوالد .

والخلاصة ـ أن كل ثناء جميل فهو لله تعالى إذ هو مصدر جميع الكائنات ، وهو الذي يسوس العالمين ويربيهم من مبدئهم إلى نهايتهم ويلهمهم ما فيه خيرهم وصلاحهم ، فله الحمد على ما أسدى ، والشكر على ما أولى .

(الرحمن الرحيم) قد سبق أن قلنا إن معنى الرحمن المفيض للنعم المحسن على عباده

بلا حصر ولا نهاية ، ولفظه خاص بالله تعالى ولم يسمع عن العرب إطلاقه على غيره تعالى إلا فى شعر لبعض من فتن بمسيلمة الكذاب :

سموت بالمجد يا ابن الأكرمين أبا وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا

والرحيم هو الثابت له صفة الرحمة التى عنها يكون الأحسان .

وقد ذكر سبحانه هذين الوصفين ليبين لعباده أن ربوبيته ربوبية رحمة وإحسان ليقبلوا على عمل ما يرضيه وهم مطمئنو النفوس منشرحو الصدور ، لا ربوبية جبروت وقهر لهم .

والعقوبات التى شرعها الله لعباده فى الدنيا والعذاب الأليم فى الآخرة لمن تعدى حدوده وانتهك حرماته ـ هى قهر فى الظاهر ورحمة فى الحقيقة ، لأنها تربية للناس وزجر لهم حتى لا ينحرفوا عن الجادة التى شرعها لهم إذ فى اتباعها سعادتهم ونعيمهم ، وفى تجاوزها شقاؤهم وبلاؤهم ، ألا ترى إلى الوالد الرءوف كيف يربى أولاده بالترغيب فى عمل ما ينفع والإحسان إليهم إذا لزموا الجادة ، فإذا هم حادوا عن الصراط السوى لجأ إلى الترهيب بالعقوبة حين لا يجد منها محيصا قال أبو تمام :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

(مالك يوم الدين) قرأ بعض القراء مالك ، وبعض آخر ملك ، والفارق بينهما أن المالك هو ذو الملك (بكسر الميم) والملك هو ذو الملك (بضم الميم) وقد جاء فى الكتاب الكريم ما يعاضد كلا من القراءتين ، فيعاضد الأولى قوله (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا) ويعاضد الثانية قوله (لمن الملك اليوم) .

قال الراغب : والقراءتان وإن رويتا عن جمع كثير من الصحابة ، فالثانية يكنفها من الجلال والروعة وإثارة الخشية ما لا يوجد مثله فى القراءة الأولى ، فهى تدل على أنه سبحانه هو المتصرف فى شئون العقلاء بالأمر والنهى والجزاء ، ومن ثم يقال ملك الناس ولا يقال ملك الأشياء :

والدين يطلق لغة على الحساب ، وعلى المكافأة ، وعلى الجزاء ، وهو المناسب هنا ،

وإنما قال مالك يوم الدين ، ولم يقل مالك الدين ليعلم بأن للدين يوما معينا يلقى فيه كل عامل جزاء عمله .

والناس وإن كانوا يلاقون جزاء أعمالهم فى الدنيا باعتبارهم أفرادا من بؤس وشقاء جزاء تفريطهم فى أداء الحقوق والواجبات التى عليهم — فربما يظهر ذلك فى بعض دون بعض ، فانا نرى كثيراً من المنغمسين فى شهواتهم يقضون أعمارهم وهم متمتعون بلذاتهم ، نعم إنهم لا يسلمون من المنغصات ، وربما أتتهم الجوائح فى أموالهم ، واعتلت أجسامهم ، وضعفت عقولهم ، ولكن هذا لا يكون جزاء كاملا لما اقترفوه من عظيم الموبقات وكبير المنكرات ، كذلك نرى كثيرا من المحسنين يبتلون بهضم حقوقهم ولا ينالون ما يستحقون من حسن الجزاء ، نعم إنهم ينالون بعض الجزاء بإراحة ضمائرهم وسلامة أجسامهم وصفاء ملكاتهم وتهذيب أخلاقهم ولكن ليس هذا كل ما يستحقون من الجزاء ، فاذا جاء ذلك اليوم استوفى كل عامل جزاء عمله كاملا إن خيراً فخير وإن شرا فشر جزاء وفاقا لما عمل (ولا يظلم ربك أحدا) ، (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) .

أما الناس باعتبارهم أمما وجماعات فيظهر جزاؤهم فى الدنيا ظهوراً تاما ، فما من أمة انحرفت عن الصراط السوى ولم تراع سنة الله فى الخليقة إلا حل بها ما تستحق من الجزاء من فقر بعد غنى وذل بعد عزة ومهانة بعد جلال وهيبة .

وقد جاء قوله (مالك يوم الدين) إثر قوله (الرحمن الرحيم) ليكون كترهيب بعد ترغيب ، وليعلمنا أنه تعالى ربى عباده بكلا النوعين من التربية ، فهو رحيم ومجاز لهم على أعمالهم كما قال (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم) .

(إياك نعبد وإياك نستعين) العبادة خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود اعتقاداً بأن سلطانا لا يدرك العقل حقيقته ، لأنه أعلى من أن يحيط به فكره أو يرقى إليه إدراكه .

فمن يتذلل للملك لا يقال إنه عبده ، لأن سبب التذلل معروف ، وهو إما الخوف من جوره وظلمه ، وإما رجاء كرمه وجوده ، وللعبادة صور وأشكال تختلف باختلاف الأديان والأزمان ، وكلها شرعت لتنبيه الإنسان إلى ذلك السلطان الأعلى والملكوت الأسمى ، ولتقويم المعوج من الأخلاق وتهذيب النفوس ، فان لم تحدث هذا الأثر لم تكن هى العبادة التى شرعها الدين .

هاك الصلاة تجد أن الله أمرنا بإقامتها والإتيان بها كاملة وجعل من آثارها أنها تنهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن كما قال (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) فان لم يكن لها هذا الأثر فى النفوس كانت صوراً من الحركات والعبارات خالية من روح العبادة وسرها فاقدة جلالها وكمالها ، وقد توعد الله فاعلها بالويل والثبور فقال (ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) فهم وإن سماهم مصلين لأنهم أتوا بصورة الصلاة ، وصفهم بالسهو عن حقيقتها ولبها وهو توجه القلب إلى الله والإخبات المشعر بعظمته ، وقد جاء فى الحديث : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا . وأنها تلف كما يلف الثوب البالى ويضرب بها وجهه .

والاستعانة طلب المعونة والمساعدة على إتمام عمل لا يستطيع المستعين الاستقلال بعمله وحده .

وقد أمرنا الله فى هذه الآية ألا نعبد أحدا سواه ، لأنه المنفرد بالسلطان ، فلا ينبغى أن يشاركه فى العبادة سواه ولا أن يعظم تعظيم المعبود غيره ، كما أمرنا ألا نستعين بمن دونه ، ولا نطلب المعونة المتممة للعمل والموصلة إلى الثمرة المرجوة إلا منه ، فيما وراء الأسباب التى يمكننا كسبها وتحصيلها .

بيان هذا أن الأعمال يتوقف نجاحها على أسباب ربطتها الحكمة الإلهية بمسبباتها وجعلتها موصلة إليها ، وانتفاء موانع من شأنها أن تحول دونها ، وقد أوتى الإنسان بما فطره الله عليه من العلم والمعرفة كسب بعض الأسباب ودفع بعض الموانع بقدر

استعداده الذى أوتيه ، وفى هذا القدر أمرنا أن نتعاون و يساعد بعضنا بعضاً كما قال تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) فنحضر الدواء لشفاء المرضى ونجلب السلاح والكراع ونكثر الجند لغلب العدو ونضع فى الأرض السماد ونرويها ونقتلع منها الحشائش الضارة للخصب وتكثير الغلة .

وفيما وراء ذلك مما حجب عنا من الأسباب يجب أن نفوض أمره إلى الله تعالى فنستعين به وحده ونفزع إليه فى شفاء مريضنا ونصرنا على عدونا ورفع الجوائح السماوية والأرضية عن مزارعنا ، إذ لا يقدر على دفع ذلك سواه ، وهوقد وعدنا إذا نحن لجأنا إليه بإجابةسؤلنا كما قال (ادعونى أستجب لكم) وأرشد إلى أنه قريب منا يسمع دعاءنا كما قال (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) .

فمن يستعن بقبر ناسك ، أو ضريح عابد لقضاء حاجة له ، أو تيسير أمر تعسر عليه ، أو شفاء مريض أو هلاك عدو فقد ضل سواء السبيل وأعرض عما شرعه الله وارتكب ضربا من ضروب الوثنية التى كانت فاشية قبل الإسلام و بعده ولا تزال إلى الآن كذلك ، وقد نهى عن مثلها الشارع الحكيم ، إذ حصر طلب المعونة فيه دون سواه ، وجعلها مقصد كل مخبت أوّاه .

وفى ذكر الاستعانة بالله إرشاد للإنسان إلى أنه يجب عليه أن يطلب المعونة منه على عمل له فيه كسب ، فمن ترك الكسب فقد جانب الفطرة ونبذ هدى الشريعة وأصبح مذموما مدحورا ، لا متوكلا محمودا ، كذلك فيها إيماء إلى أن الإنسان مهما أوتى من خصافة الرأى وحسن التدبير وتقليب الأمور على وجوهها — لا يستغنى عن العون الإلهى واللطف الخفى .

والاستعانة بهذا المعنى ترادف التوكل على الله ، وهى من كمال التوحيد والعبادة الخالصة ، و بها يكون المرء مع الله عبداً خاضعا مخبتا ، ومع الناس حرا كريما لاسلطان لأحد عليه ، لاحى ولا ميت ، وفى هذا فك للارادة من أسر الرؤساء والدجالين ، و إطلاق العزائم من قيود الأفاكين الكاذبين .

(اهدنا الصراط المستقيم) الهداية هى الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب ، والصراط هو الطريق ، والمستقيم ضد المعوج ، وهو ما فيه انحراف عن الغاية التى يجب على سالكها أن ينتهى إليها .

وهداية الله للانسان على ضروب :

(١) هداية الإلهام ، وتكون للطفل منذ ولادته ، فهو يشعر بالحاجة إلى الغذاء ويصرخ طالبا له .

(٢) هداية الحواس ، وهاتان الهدايتان يشترك فيهما الإنسان والحيوان الأعجم ، بل هما فى الحيوان أتمّ منهما فى الإنسان ، إذ إلهامه وحواسه يكملان بعد ولادته بقليل ، ويحصلان فى الإنسان تدريجا .

(٣) هداية العقل ، وهى هداية أعلى من هداية الحس والإلهام ، فالانسان قد خلق ليعيش مجتمعا مع غيره ، وحواسه وإلهامه لا يكفيان لهذه الحياة ، فلا بد له من العقل الذى يصحح له أغلاط الحواس ، ألا ترى الصفراوى يذوق الحلو مرّا ، والرائى يبصر العود المستقيم فى الماء معوجا .

(٤) هداية الأديان والشرائع ، وهى هداية لابد منها لمن استرقّت الأهواء عقله ، وسخر نفسه للذاته وشهواته ، وسلك مسالك الشرور والآثام ، وعدا على بنى جنسه ، وحدث بينه وبينهم التجاذب والتدافع — فبها يحصل الرشاد إذا غلبت الأهواء العقول ، وتتبين للناس الحدود والشرائع ، ليقفوا عندها ويكفوا أيديهم عما وراءها — إلى أن فى غرائز الإنسان الشعور بسلطان غيبى متسلط على الأكوان ، إليه ينسب كل ما لا يعرف له سبباً ، وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة ، وهو بعقله لا يدرك ما يجب لصاحب هذا السلطان ، ولا يصل فكره إلى ما فيه سعادته فى هذه الحياة فاحتاج إلى هداية الدين التى تفضل الله بها عليه ووهبه إياها .

و إلى تلك الهدايات أشار الكتاب الكريم فى آيات كثيرات كقوله (وهديناه النجدين) أى طريق الخير والشر والسعادة والشقاء . وقوله (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا

العمى على الهدى) أى أرشدناهم إلى طريق الخير والشر فاختاروا الثانى الذى عبر عنه بالعمى .

وهناك نوع آخر من الهداية وهو المعونة والتوفيق للسير فى طريق الخير ، وهو الذى أمرنا الله بطلبه فى قوله : اهدنا الصراط المستقيم ؛ إذ المراد — دلنا دلالة تصحبها من لدنك معونة غيبية تحفظنا بها من الوقوع فى الخطأ والضلال .

وهذه الهداية خاصة به سبحانه لم يمنحها أحدا من خلقه ، ومن ثم نفاها عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) وقوله (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) وأثبتها لنفسه فى قوله (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) .

أما الهداية بمعنى الدلالة على الخير والحق ، مع بيان ما يعقب ذلك من السعادة والفوز والفلاح ، فهى مما تفضل الله به ومنحه خلقه ، ومن ثم أثبتها للنبى صلى الله عليه وسلم فى قوله (و إنك لتهدى إلى صراط مستقيم).

هذا ـ والصراط المستقيم هو جملة ما يوصل إلى السعادة فى الدنيا والآخرة من عقائد وأحكام وآداب وتشريع دينى كالعلم الصحيح بالله والنبوة وأحوال الكون وأحوال الاجتماع ـ وقد سمى هذا صراطا مستقيما تشبيها له بالطريق الحسى ، إذ كل منهما موصل إلى غاية ، فهذا سير معنوى يوصل إلى غاية يقصدها الإنسان ، وذاك سير حسىّ يصل به إلى غاية أخرى .

وقد أرشدنا الله إلى سؤال الهداية منه ليكون عونا لنا ينصرنا على أهوائنا وشهواتنا بعد أن نبذل ما نستطيع من الجهد فى معرفة أحكام الشريعة ونكلف أنفسنا الجرى على سننها ، لنحصل على خيرى الدنيا والآخرة .

(صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم) الذين أنعم عليهم هم النبيون والصديقون والصالحون من الأمم السالفة ،وقد أجملهم هنا وفصلهم فى مواضع عدة من الكتاب الكريم بذكر قصصهم للاعتبار بالنظر فى أحوالهم ، فيحملنا ذلك على

حسن الأسوة فيما تكون به السعادة ، واجتناب ما يكون طريقا إلى الشقاء والدمار .

وقد أمرنا باتباع صراط من تقدّمنا ، لأن دين الله واحد فى جميع الأزمان ، فهو إيمان بالله ورسله واليوم الآخر ، وتخلّق بفاضل الأخلاق وعمل الخير وترك الشر ، وما عدا ذلك فهو فروع وأحكام تختلف باختلاف الزمان والمكان ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) إلى آخر الآية .

والمغضوب عليهم هم الذين بلغهم الدين الحق الذى شرعه الله لعباده فرفضوه ونبذوه وراءهم ظهريا ، وانصرفوا عن النظر فى الأدلة تقليدا لما ورثوه عن الآباء والأجداد ـ وهؤلاء عاقبتهم النكال والوبال فى جهنم و بئس القرار .

والضالون هم الذين لم يعرفوا الحق ، أو لم يعرفوه على الوجه الصحيح ، وهؤلاء هم الذين لم تبلغهم رسالة ، أو بلغتهم على وجه لم يستبن لهم فيه الحق ، فهم تائهون فى عماية لا يهتدون معها إلى مطلوب ، تعترضهم الشبهات التى تلبس الحق بالباطل والصواب بالخطأ إن لم يضلوا فى شئون الدنيا ضلوا فى شئون الحياة الأخرى ، فمن حُرم الدين ظهر أثر الاضطراب فى أحواله المعيشية وحلت به الرزايا،وهم غير مكلفين بشريعة ولا يعذبون فى الآخرة لقوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

وهذا رأى جمهرة العلماء ، وترى فئة منهم أن العقل وحده كاف فى التكليف ، فمتى أوتيه الإنسان وجب عليه النظر فى ملكوت السموات والأرض والتدبر والتفكر فى خالق الكون ، وما يجب له من عبادة وإجلال ، بقدر ما يهديه عقله و يصل إليه اجتهاده ، وبذلك ينجو من عذاب النار يوم القيامة ، فإن لم يفعل ذلك كان من الهالكين .

(آمين) اسم بمعنى استجب ، وفيه لغتان : المد كما قال شاعرهم :

يا رب لا تسلبنّى حبها أبدا ويرحم الله عبدا قال آمينا

والقصر كما قال الآخر : أمينَ فزاد الله ما بيننا بعدا

وروى فى الأثر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لقننى جبريل آمين عند

فراغى من قراءة الفاتحة ، وقال إنه كالختم على الكتاب ، وأوضح ذلك علىّ كرم الله وجهه فقال : آمين خاتم رب العالمين ، ختم به دعاء عبده ـ يريد أنه كما يمنع الخاتم الاطلاع على المختوم والتصرف فيه ، يمنع آمين الخيبة عن دعاء العبد .

وهـــذا اللفظ ليس من القرآن إذ لم يثبت فى المصاحف ، ولا يقوله الإمام فى الصلاة ، لأنه الداعى كما قال الحسن البصرى ، والمشهور عن أبى حنيفة أنه يقوله ويخفيه وفاقا لرواية أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعند الشافعية يجهر به ، كما رواه وائل بن حجر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : كان إذا قرأ ولا الضالين ، قال : آمين ورفع صوته .

ويرى بعض علماء الآثار المصرية فى العصر الحاضر أن كلمة (آمين) معناها الله ، فكأنها ذكرت فى آخر الفاتحة للختم باسمه تعالى إشارة إلى أن المرجع كله إليه ، ويعقدون موازنة بين (مينو) و (آمون) و (آمين) .

ويرى الثقات من علماء اللغات السامية رأيهم ، ويقولون : إنها ذكرت آخر الفاتحة للترنم بها بعدقراءة السورة التى تضمنت الإشارة إلى أغراض الكتاب الكريم ، ويؤيدون رأيهم بأن المزامير ختمت بكلمة (سلاه) للترنم بها على هذا النحو ـ ويكون المعنى العام ـ إنا نتوجه إليك يا إلهنا فاليك المرجع والمصير .